اللغة العربية وعلوم العصر

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

« مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن اداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الاسلامية وفجر العصر الحديث » .

« ومنذ عزلت عن الميدان العلمى تدريسا وتأليفا، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى لا تحتمل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى اليها حتى عربت « موسكو » علوم العصر : فهل كنا نحرث فى الماء ؟ ! »

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبتها اول الامر مما ينشره « المجمع العلمى للاتحاد السوفيتى » من ذخائر تراث لنا ، يرى فيه رواد الفضاء اكفان موتى وأحافير اثرية من عصور غبرت ، ولايسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل او مناقشة ، فممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب ان يوفر كله للسباق الظافر الى غزو القمر .

فلما نظرت فى كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدتها جميعا من صميم علوم العصر التى وضعت لتكون مرجعا للدارسين فى الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى .

واوشكت أن اطرح هذه الكتب جانبا ، أو اتخفف من عبئها على خزانة كتبى ، بالتماس من يهتم بموادها التى لاشأن لى بها ولا اتصال .

غير انى ما لبثت ان ذكرت ما اشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، أحاول ان استبين الى اى مدى طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا اليه فى المجال العلمى والصناعى .

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية الى عدد من صفوة علماء الاختصاص وفى مقدمتهم عالمنا الحكيم الدكتور محمد كامل حسين والدكتور اسامة امين الخولى وكيل هندسة القاهرة .

وكانت مفاجأة لى ، ان اقرأ لغتى فى هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طيعة

ميسرة ، لاتتوقف ولا تتعثر .

وان امضى فى قراءة المواد العلمية التى انعزلت عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجاة أن اسرارا من لغته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به افقنا العربى المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن اداء علوم العصر ، وتبرر عذر جامعاتنا فى الاصرار على تدريسها بلغة اجنبية .

وتنذرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علميا وصناعيا ، ان نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها فى عصر العلم !

فمبلغ علمى ، ان جيلنا مازال منذ وعى ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الامة فأيقنوا أنها حق لاريب فيه ، واما الذين اتصلوا بماضى الامة ودرسوا تراثها العلمى ، فقد وقفوا فى حيرة من امر هذه العربية : من أين اصابها العقم وهى التى استطاعت منذ عشرة قرون ، وأكثر ، ان تستوعب كل التراث الفلسفى والعلمى للامم القديمة ، وان تنقل الى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التى عرفها التاريخ ؟

وكيف يعييها اليوم ان تنقل علوما كان للعلماء العرب ، فى عصر الحضارة الاسلامية ، مجد الزيادة فيها وتحريرها من المنهج التأملى الفلسفى الذى كان يسيطر على العقلية اليونانية فى عصر قيادتها للفكر الانسانى فيردها الى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعا او عاجزا عن التجربة العلمية بمنهجها الاستقرائى الدقيق واجهزتها المعملية ؟

تاريخ :

ومن وراء ثلاثة عشر قرنا، مضيت اساير التاريخ العلمى لامتى ، وانا فى أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو !

من القرن الأول الهجرى ــ السابع الميلادى ــ بدأ اتصال العربية بالتراث العلمى القديم ، فى حركة ترجمة لكتب فى النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الاموى ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بنى امية .

على ان الترجمة لم تلبث ان اخذت فى العصر العباسى الأول ، وضعا رسميا تدخل به فى سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخى من الخزانة العامة ، وقد استوعبت الحركة فى عصر الرشيد وولده المأمون، ذخائر التراث الفكرى والعلمى فى الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الاسلامية ان هضمت ذلك التراث وتمثلته فاعطته روحا جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الاسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر اليها .

وتلقى معجم العربية رصيدا ضخما من المصطلحات العلمية المعربة ، الى جانب الالفاظ العربية التى امكن تطويعها للمصطلح العلمى .. ولا يذكر التاريخ أن حركة احياء التراث العلمى قد انتظرت طويلا ريثما يستقر راى المختصين على امكان نقل العلوم الى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين فى جواز تعريبها ..

وفى طمانينة واثقة من تأييد العقيدة الاسلامية للعلم وتمجيدها للعقل انطلق علماء الدولة الاسلامية ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المريرة بين العلم والدين ، فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديدا اصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية ، ودخلوا التاريخ العلمى روادا لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى ــ التاسع الميلادى ــ بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التى الفها اولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا ان تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية فى الحساب والجبر والهندسة والفلك وان تطوع المصطلحات العلمية فى الطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان والجغرافيا ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التى اخترعها علماؤنا الذين تم على ايديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية الى مجال البحث العلمى التجريبى ، وكانت فى التراث

البابلى مختلطة بالسحر ، وفى المدارس اليونانية داخلة فى نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية ..

وكل هذا مما لايجهله دارسو التاريخ العربى والحضارة الاسلامية ، وقد كان جديرا بأن يصل الى المنتمين منا الى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدى علمائنا فى العصر القيادى للحضارة الاسلامية ، واعترفوا بأن حركة الاحياء (الرنيسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة فى أوربا ، انما قامت أساسا على ما انتقل الى الغرب الاوربى من تراثنا العلمى الحضارى ، على المعابر التاريخية الكبرى فى العصر الوسيط : الاندلس وصقلية والدردنيل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت فى الغرب الحديث على الدروب التى عبدها رواد هذه العلوم من اعلام الدولة الاسلامية ، وقد ثبت تاريخيا أن اكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس فى جامعات أوربية الى القرن السابع عشر، فى أصولها العربية او مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان » (ت 198 هـ) التى ألفها فى الكيمياء باللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى، عرفتها أوربا فى نصوصها العربية وفى ترجمات لاتينية ثم المانية (هولميارد Holmyard — 1678 م) ، ثم ترجمها الى الانجليزية (ريتشارد راسل R. Russel) فى طبعة لندن 1928) .

وكتاب حساب الجبر والمقابلة الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى » (ت 236 هـ) فى اوائل القرن الثالث الهجرى،نقله «جيرار الكريمونى» الى اللاتينية فى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر « روزن F. Rosen » نصه العربى مع ترجمة انجليزية فى طبعة لندن 1850 .

ونشر (ناجل A. Nagel) ترجمة الابواب الخاصة منه بالحساب كما وضع (جاندز S. Gandz) كتابا عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب « الحاوى لصناعة الطب » الذى ألفه طبيبنا « ابو بكر الرازى » (ت 311 هـ) من علماء القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى ، تحمل اقدم نسخة عربية منه فى أوربا ، تاريخ سنة 1282 بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس (الناسيونال) وترجمه الى اللاتينية « جيرار الكريمونى » عام 1486م ونص (رينو) فى ترجمته الفرنسية لكتاب ادوار براون « الطب العربى » على أن كتب الرازى التى ترجمت الى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءا .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف بالمنصورى — اهداه الى المنصور بن اسحاق والى خراسان — نشرت ترجمته فى طبعة ميلانو 1481 م، ثم نشره (كونينج P. Koning) — مع أجزاء من كتاب « الكناش الملكى » لعلى بن عباس والقانون لابن سينا — فى طبعة ليدن سنة 1903 ، وترجمة (برونر W Bronner) الى الالمانية فى طبعة برلين 1900 .

ورسالته فى الجدرى والحصبة ترجمها (فالا E. Valla) الى اللاتينية فى طبعة البندقية عام 1498 م ، و (جاك جوبيل J. Goupyl) الى اليونانية فى عام 1548 وترجمه الى الفرنسية (جاك بوليه J. Poulet) فى طبعة باريس 1866 ، و (لوكلير ، ولينوار Leclere, Lenoir) فى طبعة باريس سنة 1866 .

ونشر (جرينهل W. Greenhill) نصه العربى مع ترجمة انجليزية فى طبعة لندن 1848 ..

كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام 1896 ..

وترجمه (كارل اوبتز K. Opitz) الى الالمانية فى طبعة ليبزج 1911 .

وكتاب على بن العباس (ت 383 هـ) — « كامل الصناعة الطبية » المعروف بالكناش الملكى الذى ألفه بالعربية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجم الى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة 1492 ، ثم فى طبعة ليدن سنة 1523 .

وبصريات الحسن بن الهيثم (ت 422 هـ) التى ألفها بالعربية فى كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم فى ترجمات لاتينية

بالعصور الوسطى ، ونشر (ريزنر Risner) ترجمة كاملة له بأجزائه السبعة عام 1573 ، كما نشر (كارل شوى K. Schoy) بالالمانية عام 1920 رسالة ابن الهيثم فى استخراج القطب .

وكتاب « الادوية البسيطة » للطبيب الاندلسى (ابن الوفد) نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة !

وكتاب « التصريف » للطبيب الاندلسى « ابى القاسم الزهراوى » (ت 411 هـ) ترجم الى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة 1497 ثم فى طبعتى ستراسبورج سنة 1532 ، وبال 1541 م . والجزء الخاص منه بالجراحة كان اساسا للتعليم الجراحى بأوربا لبضعة قرون . وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية فى طبعة اكسفورد سنة 1778 م .

وقانون (الشيخ الرئيس ابن سينا) ، ابى على الحسين (ت 428 هـ) فى الطب المؤلف بالعربية فى اوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة اجزاء ، ترجمه الى اللاتينية (جيرار الكريمونى) ونشر فى طبعات ميلانو 1473 ، و (بادوا Padoa) 1476 ، والبندقية 1482 . ثم اعيد طبعه حتى بلغت طبعاته العشرين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة 1593 م .

وكتاب « الشريف الادريسى » — (ت 457 هـ) — « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى الفه فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الاول فى عصر النهضة ، ونشرت اجزاء منه فى ليدن سنة 1866 م ، وفى روما مع ترجمة ايطالية سنة 1883 ، وفى مدريد سنة 1901 . وترجمة (دى جويه ودوتز M. D. Joeje, R. Doz) الى الالمانية فى طبعة (أوبسالا) سنة 1894 م .

ومفردات (ابن البيطار) — (ت 646 هـ) فى الادوية ، التى الفها بالعربية فى كتابه « الجامع فى الادوية المفردة » فى اوائل القرن السابع الهجرى عرفت فى نصها العربى بأوربا فى عصر النهضة ، وترجمت الى اللاتينية قبل ان ينقلها (فون زونتهايمر) الى الالمانية فى طبعة (شتوتجارت) (1840 — 1842 م) ، و (لوكلير) الى الفرنسية فى طبعة باريس (1877 — 1883 م) .

* * *

ثم لا امضى فى سرد ما احيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى (1) الذى صد عنها المتفرنجين من مثقفينا ، كونها من حفريات ماض غبر ، ومخلفات موتى افناهم البلى .

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من امثال « سارتون » ، وويل ديورانت، والدوميلى ، ونللينو ، وامارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور ، واوليرى ، وبراون ، وكراتشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجريد هونكه .. » ان هذه الذخائر فى اصولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى اضاءت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والعلم الحديث .

* * *

وادع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطبية والزراعية ، فى اوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا ، (كلوت بك) الطبيب ، والدكتور (فيجرى) عالم النبات ، كان

---

(1) من اقرب المراجع لهذا الموضوع كتاب « العلم عند العرب » ، لالدوميلى ترجمة د . عبد الحليم النجار ، و د . محمد يوسف موسى ط دار العلم بالقاهرة 1962 ، وتجد فى الفصل الاول من كتاب الدكتور توفيق الطويل « العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى » — ط النهضة العربية 1968 ، دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعه . وراجع محاضرة تراثنا بين شرق وغرب ، فى كتابى « تراثنا بين ماض وحاضر » من مطبوعات « معهد البحث والدراسات العربية » سنة 1968 .

المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم الى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية الى بداية عصر الاحتلال · ولم يفكر اعضاء البعثات العلمية الاولى (من العرب) الذين اوفدوا الى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، عند عودتهم الى بلادهم، فى أن يلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العربية العليا بلغة اجنبية ، بل قدموا الى مكتبتنا العلمية رصيدا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم ·

الف الجراح الشهير (محمد على البقلى) كتبا عربية فى الجراحة ، و (محمد الشافعى) فى الامراض الباطنية ، و (محمد ندى) فى النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة ، والصيدلى (على رياض) فى الصيدلية والسموم ، و (محمد الدرى) فى الجراحة والامراض الوبائية ، و (سالم سالم) فى الطب الباطنى ، و (محمود الفلكى) فى التقاويم والمقاييس والفلك ، و (محمد بيومى) فى الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية ··

وشارك علماء اللغة فى هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون فى تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم (محمد عمر التونسى) مؤلف « معجم الشذور الذهبية فى الالفاظ الطبية » ، و (ابراهيم الدسوقى) الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية ، و (رفاعة رافع الطهطاوى) و (احمد فارس الشدياق) و (المعلم بطرس البستانى) فى الفاظ الحضارة والفنون (1) ·

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين ايدى المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وشاركوا فى هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتاليف فيها بالعربية ·

وقد اشتهر منهم (الدكتور كورنيليوس فانديك) الذى درس فى بيروت بالعربية : الكيمياء والجويات وعلم الامراض · وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية فى مبادىء الطب البشرى ، والنقش فى الحجر (فى تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلدة منها موجز فى علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية)· وله كتب عربية اخرى فى الرياضيات ، واصول الجبر، والاصول الهندسية ، واصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء ، فى الفلك ··

و (الدكتور جورج يوسف) قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية · ومن مؤلفاته فيها (المصباح الوضاح فى صناعة الجراح) والاقرباذين والمواد الطبية ، ومبادىء التشريح والصحة والفسيولوجية ، وكتاب من جزأين فى مبادىء علم النبات · وقد الف معجما قيما باللغة الانجليزية فى (نبات سورية وفلسطين والقطر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للاسماء العربية ، فصحى او عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو الف وخمسمائة اسم ·

و (الدكتور يوحنا ورتبات) علم فى كلية بيروت، التشريح والفسيولوجية بالعربية ، والف بها كتب التشريح ، والفسيولوجية ، وحفظ الصحة ، ورسائل عديدة فى مسائل طبية (2) ·

* * *

وقصة :

الى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا

---

(1) من مراجع هذا الموضوع :

- « تقويم النيل » و « التعليم فى مصر » لامين سامى — ط القاهرة ·
- « تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر » — لاحمد تيمور : 1940 ·
- « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » للاستاذ مصطفى الشهابى : مطبوعات المعهد 1955
- « تاريخ التعليم فى مصر » للدكتور احمد عزت عبد الكريم — القاهرة 1945 ·

(2) الاستاذ مصطفى الشهابى · « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » ص 42 ط المعهد ·

العلمى ، قبل أن تتسلل الى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها ..

اما ما بعد ذلك فيشبه ان يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا ان يميز خيوطها المتشابكة فى نسيج معقد اشد التعقيد !

من اين بدات هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟

والى اين انتهت ؟

من العسير ان نستوعب القصة فى اقطار الوطن العربى . وقد اكتفى فى هذا المجال المحدود بتتبع فصولها فى مصر التى كانت مركزا للغزو الفكرى ، بحكم دورها القيادى فى فجر اليقظة العربية ، وان تكن القصة قد تكررت بصورة او بأخرى فى سائر اقطار الوطن العربى .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال عزلت اللغة عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها بلغته . وساير هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس اى علم حديث ، وانما حسبها أن تبقى فى الكتاتيب والمعاهد الدينية والمدارس الاولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة ان جاوزت مجالها المحدود ؛ فى القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، الى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى فى عصور الانحطاط ، انما يرجع الى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حداء الابل والوقوف على الاطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو فى مجتمع الزراعة والرعى ، اذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة الى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى فى بعض مراحلها الاولى بالدعوة الى اللغة العامية ، فالدكتور (سبيتا) كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة الى الموت ، الى اللغة العامية — على أن نكتبها بحروف لاتينية !

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فى طريقين ، احدهما يدعو الى العامية ، والآخر يدعو الى لغة اجنبية حية بديلا للعربية الميتة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

مع بوادر الثورة العرابية ، روج عدد من المثقفين العرب لفكرة استبدال لغة اجنبية بلغتنا العربية ، واذا كان قادة الامة قد وجدوا فى العامية وسيلة الى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فانهم لم يجدوا فى الدعوة الى لغة اجنبية سوى مسخ لشخصية الامة وقضاء عليها .

وبدأ (عبد الله النديم) من العدد الاول من « التنكيت والتبكيت » (1) حملته على دعاة اللغة الاجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد و « عربى متفرنج » ، ثم كتب فى العدد الثانى مقالا عنوانه : « اضاعة اللغة تسليم للذات » سأل فيه الناطق بالضاد : بم يستعيض عن لغته وما لها من مثيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا واسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن فى لغة اجنبية حديثة ليس فى لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « ان اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الانسان والبهيم ... فهى انت ان كنت لا تدرى من انت ، وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن . اما كونها انت فلانك بها تعرف اهلك ، وانت اذا فقدتهم صرت وحيدا غريبا ، فى الوجود لا يقول لك قائل من انت ، واما كونها وطنك فانه انما يعمر الوطن ويسمى وطنا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« اسمعك تقول : اذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى . اعتضت عنها ولكن بما اضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية .. فتبيت وانت وطنى حر ، وتصبح وانت فى يد اجنبى يصرفك كيف يشاء ... لان اضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم الاستاذ « أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافى ومكانته الادبية فلم يكتف بأن نستعير لغة اجنبية (لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها) ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية ،

---

(1) مجلة اصدرها « النديم » عام 1881 .

فصحى وعامية الى لغة اجنبية تحيينا علميا وثقافيا واقتصاديا · واكد عقم كل محاولة تبذل لاحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتما بالموت !

وكانت وجهة نظره :

ـ ان اللغة اداة للتعبير · والمرء لا يقيد بلغة خاصة اذا ما استطاع ان يصل الى الهدف وهو التعبير عن نفسه · واذ كانت اللغة العربية ليست اداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف اهلها فلا لوم عليه اذا تركها الى غيرها من اللغات الاجنبية لان الانسان مفطور على طلب التقدم ·

ـ ان اللغة العربية سائرة حتما الى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العبرية ، ومع ذلك لم تستطع ان تتغلب على الموت · فبأى شيء نستبقى اللغة العربية ونغرى بالتمسك بها : بحسن كلام ام بلطافة لفظ ام بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ اليس دلك كله كان كثيرا فى لغات ماتت كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون ان يقيها من الموت شيء ؟

ـ ان احياء اللغة العربية بعد موتها امر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلا عن كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء · وانى لنا ان نكون خيرا من اصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال باحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزا ؟ اذهب الى دوائر حطامنا ومراكز تجارنا، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم الف كتابا واجعله كله ضادا ، واصرف فيه عمرك واعرضه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج ·

« اما اللذة العقلية التى احصلها من درس لغتى لافهم كتب علمائها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد اقوالهم البديعة ، فانك تعلم **اولا** ان كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غذاء جسده · وقد نسيت **ثانيا** ان مؤلفاتنا التى نفتخر بها ـ يعنى ذخائر تراثنا ـ قد نهبت لفظا ومعنى الى مراكز الامم النامية ـ يعنى الراقية المتقدمة ـ فزادوا عليها امورا كثيرة ، فهى حية فى تلك الامم ميتة عندك ، لاسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها اغلاط · ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ؛ ومنها ان كثيرا قد نسخ بما اظهرته التجارب وقام غيره مقامه · ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى هذه الكتب · ومنها عدم وجودها كلها اذ لم يبق منها الا الطفيف :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا الهزال الباقى اذا كنت سعيدا وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه مالا جزيلا ؛ ومن اين لك المال يا اخى وانت تتجر ببضائع اكلها العث وبدلتها الموضة ؟ »

ـ ان من اراد كسبا ماديا وعلميا فليختر لغة غير العربية « اية لغة اجنبية ان كتبت بها راجت كتابتك ، وان طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتبا لا تحصى فى غاية الضبط والكمال امتلأت خزانتك · منها كتب اجدادك قد تصفحها اضدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بثمن ارخص من الفجل· فاذا اشتبه عليك معناها وجدت الوفا يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها · نعم ان فى لغة الطفولة لذة ووطنية ، الا ان الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الالفاظ اعنى فى صيانة حقوق الافراد واحكام العدل والتسوية والالتفات الى الامة ولغتها وعدم اعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فاذا فعلت هيئتنا ذلك هان عليها كل شيء؛ والا فانت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا واشتعل الرأس شيبا » ·

وقد نشر النديم مقال شميل بعنوان « كلمة غيور على لغته » فى العدد الخامس من (التنكيت والتبكيت) ـ (10 ـ 7 ـ 1881) ·

ثم بدا الرد عليه ، فراى ان يفرغ اولا من بيان حقيقة ان اضاعة اللغة تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالا مطولا فى العدد الثالث عشر من (التنكيت) حيث اوضح ان من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية راسا ويتجنسون باللغة الطارئة ،

« فاذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرهـا ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فاذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان» .

لكن أحداث الثورة العرابية لفته فى دوامتها ، حتى اذا عاد الى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين، كان الاحتلال الانجليزى قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمى والعلمى ، وفرض اللغة الانجليزية لغة للتعليم .

واذ كانت السلطة حين رخصت للنديم فى اصدار صحيفة « الاستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الامة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد فى معركة الغزو اللغوى الذى كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسى والقضاء على الامة .

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول فى « اضاعة اللغة تسليم للذات » عام 1881 م ، فاستئناف رده على المقال الذى كتبه امين شميل قبل نحو احد عشر عاما ، فلم يلمه على ترك اللغة العربية وهى ليست لغة الانجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهو انه لدى الحكام واصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالى وقيمته « بأن الامة ليست كلها فى دوائر الحكومة ولا متجرة مع اوربا ، وانما الجأ بعض الامة الى تعلم اللغات الاجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الاوربى المنتقل الى بلادنا اتجارا واستيطانا ، تعلم لغتنا ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، ، علموا هم بعض الامة ليخدم الاوربى ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل — الاستاذ شميل — أن يبكت الذين احيوا لغة الاجانب باماتة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الاجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة اليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث (شميل) عن ذخائر تراثنا الذى راى أن يلتمسها من شاء منا لدى الاجانب الذين نهبوها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليه النديم بأن فى كلامه اقرارا بأن الانجليزى او الفرنساوى ، لم يفهمها الا بعد أن تعلم لغتنا واتقن معرفة قواعدها ، والا لاستحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلا عن فهم معناها . فاذا كان الاجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا لينقل ما فيها الى لغته ، افلا نتعلمها نحن للمحافظة على ما عندنا ؟ واذا كان الاجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا وهى اجنبية عنه، افلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم؟ واما تعليله بالاغلاط — فى كتب تراثنا — فاظنه من باب التنكيت ! فان الذين تمدح بهم من الافرنج ما اخذوا تلك العلوم الا من هذه الكتب ، فيلزم ان تكون علومهم فاسدة لانها ماخوذة من اغاليط لا صواب فيها .. فان قيل انهم صححوها وهى بغير لغتهم ، قلنا : افلا يقدر اصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم ادرى بها من غيرهم ؟ واما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فانه منقوض بنفس القائل ، فانه احد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معانى تلك المؤلفات والاخذ منها والنقل عنها كما فعل فى مؤلفاته العربية (1) مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية . فالعلماء القائمون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش . تشهد بذلك الكتب التى الفت من القرن الاول الاسلامى الى الآن . على أن العلوم التى اهملت فى الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت فى الغرب قد ترجمها الشرقيون الى لغتهم وقراوها فى مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفتها شىء مما كتب فى اوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية الى اللغة الفرنساوية او الانجليزية الا فى هذه السنة ، وهى نشأة موقتة لا تمكث الا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التى يصرفون اموالهم على المدارس التى هى فيها ، ولا يعارضهم فى ذلك معارض ، فان الاجنبى لم ينفق

---

(1) الف الاستاذ شميل فى القانون والسياسة والادب . ومن مؤلفاته : « الوافى » فى تاريخ المسالة الشرقية ، و « المبتكر فى الادب » (5 مقالات + 25قصيدة) ، و « نظام الحكومة الانجليزية » و « الدرة الجليلة فى المباحث القضائية » .

على المدارس درهما ولا دينارا حتى يحتم علينا لغته التى لا حاجة لنا بها فى التدريس · (الاستاذ : 20 — 3 / 6 / 1893) ·

* * *

وهذا الحوار بين النديم وشميل يكفى هنا لاعطاء فكرة عن ابعاد المعركة واسلحة الفريقين فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة فنرى انه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلى عن لغة الامة ، عجز عن التصدى لفرض العربية على المجال العلمى ، وقد عزلت تماما عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون انفسهم بقصورها عن اداء العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخلصة لعلاج هذا القصور ·

ويمكن القول أن الشعور بمحنة العربية بدا منذ اغلقت المعاهد العلمية مدرسة الالسن فى عصر (سعيد) · ففى عام 1860 دعا (احمد فارس الشدياق) فى مجلة « الجوائب » الى تآزر جهود المشايخ والعلماء ، لتعريب مصطلحات العلوم والفنون التى لم يكن لسلفهم معرفة بها · وحمل الدعوة من بعده (عبد الله فكرى) فى « الآثار الفكرية » عام 1876 ، ثم تولاها (النديم) فى « الاستاذ » من عام 1892 لافتا الى واجب القائمين بالامر فينا ، فى أن يحولوا بين اللغة وموتها ، باحداث جمعية من مشايخ الازهر وافاضل العلماء العارفين باللغات الاجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمياوية والهندسية ومفردات الكلام ، اسماء عربية تدرس بها تلك العلوم ·

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففى اوائل عام 1893 اجتمع فى دار السيد محمد توفيق البكرى عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع الجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفنى ناصف ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال ·

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكرى لرياسته ، ومحمد بيرم لاعمال السكرتارية · وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عددا من المصطلحات العلمية ، وكان آخر الجلسات يوم 27 — 2 — 1893 ·

وفى العام نفسه ظهرت مجلة «المهندس» فقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الفصحى تحديا لمجلة « الازهر » (1) ودحضا لدعوى من قالوا بعجز العربية عن اداء العلوم الحديثة · وقد تولى « المهندس احمد كامل » تحرير القسم الهندسى والرياضى و « الدكتور مهدى » تحرير القسم الطبى، و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى ·

* * *

وشهدت مرحلة اليقظة حركة تطور فى اساليب العربية ونهوض باللغة ، استوعبها الاستاذ العميد محمد خلف الله فى كتاب « معالم التطور الحديث فى اللغة وآدابها » (ج 1 — القاهرة 1961) ·

ثم شهد النصف الاول من هذا القرن عددا من علمائنا ، عكفوا فى اخلاص باذل ، على وضع معاجم للعلوم ، من اشهرها معجم الدكتور محمد شرف (بالانجليزية والعربية) فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعة والمواليد والنبات ، ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور امين المعلوف (بالانجليزية والعربية ايضا) ، ومعجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى (بالعربية والفرنسية) ومعجم الالفاظ الزراعية للامير مصطفى الشهابى (بالعربية والفرنسية) · ونشرت مجلات المرحلة — كمجلة المجمع العلمى بدمشق ومجلة لغة العرب ببغداد ومجلة المقتطف بمصر — بحوثا علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية او المعربة · واشتغل عدد من اعلام العصر بتحقيقات لغوية للالفاظ العلمية · منهم احمد تيمور واحمد زكى فى بحوثهما فى الفاظ الحضارة واسماء البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لالفاظ الفلك · ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثا فى المصطلحات الدبلوماسية (دمشق 1949) والدكتور عدنان الخطيب فى لغة القانون (دمشق 1952) والدكتور بشر فارس فى مصطلحات فن التصوير (مصر 1945)

(1) مجلة آلت الى (وليم ويلكوكس) فى ديسمبر 1892 حاول أن يجعل منها منبرا للدعوة الى العامية واماتة الفصحى ·

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الاستاذ جريفل فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف فى تحقيق اسماء نباتية طبيّة ، وشرح اسماء العقار لابن ميمون الاندلسى ، والدكتور رينو والاستاذ كولين ، فى شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه « تحفة الاحباب فى ماهية النبات والاعشاب » .

وتألفت لجان فى مصر وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية ، وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها ، فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام 1919 ، والمجمع اللغوى بالقاهرة عام 1932 ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام 1947 (1) .

* * *

ولكن هذه الجهود المبذولة على مدى نصف قرن ، لم تستطع ان تعيد اللغة العربية الى مجالها الحيوى فى الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك ان تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الاجانب بعد ان خرج ويلكوكس ودخله الاستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسؤولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى الى جانب مسؤوليتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الاستاذ واعيا لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ؛ فى المجتمع وفى اللغة ، حريصا على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد اخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسؤولة عن كل امراضنا !

واشتدت حملته على (الاحافير اللغوية) وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد ان لغتنا تستطيع أن تجتر نفسها . وهذا الاعتقاد من اكبر الاسباب للفاقة الثقافية التى نعانيها فى وقتنا : « لان هذه اللغة لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر ، اذ هى لا تخدم الامة ولا ترقيها ، لانها تعجز عن نقل نحو مائة من العلوم التى تصوغ المستقبل » (1) .

واضطرب بين الدعوة الى العامية والدعوة الى لغة علمية ، ليست هى لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الالحاح فى النصح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

.. ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور اننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، اذا اشتغلنا بتأليف الكتب عن اقطاب الصناعة فى عصرنا، بدلا من التأليف فى اعلام تاريخنا .

ويطرح هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى اننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق الى البينات لا الى **العقائد** ... فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

أما اللغة العلمية ، فتعنى عنده ان كتب المطالعة فى المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات ادبية من كتب العرب قبل الف او خمسمائة سنة » ــ 96 .

كما تعنى أن نكف عن الاساليب الادبية ، لتكتب بلغة الارقام واللغة العصرية .

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية: من الطب :

ــ اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع .

ــ خوف الغارات قد نفذ الى جميع مسام المجتمع .

(1) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والمجامع فى هذا المجال ، اقرأ كتاب الاستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط المعهد 1955 .

ـ يمشى فى تثاقل روماتزمى ·

ـ الوقت كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية ·

ـ يعانى تخمة ذهنية ·

من الكيمياء :

ـ كان مذهب التطور من أعظم الخمائر الاجتماعية ·

ومن الطبيعة :

ـ الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى ·

ـ من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ···

ـ الطاقة الموطرية فى الكلمات ·

ومن الميكانيكا :

ـ يرى المصباح الاحمر اينما سار ·

ـ الحرب هى قاطرة التاريخ لانها تعجل التطور

ومن الموسيقى :

ـ الحياة تفقد ايقاعها فى المرض ·

ومن السيكولوجية :

ـ تجرثمت الفكرة عندى ·

ولست ادرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب « اللغة العصرية » (ص 75) · ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى اقلامنا بأساليب بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، واخذة المفاجأة ، واتزان الراى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك التصور ، وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، واعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الخطى ، وعمم الوجدان ···

دون ان تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه الاساليب فى نقلنا الى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون ان لغة القرآن التى زعموا انها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الاعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة العلمية ، على نحو يتضاءل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة ، كمثل آيات :

« رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت » (محمد : 20) ·

« أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » (ابراهيم : 18) ·

« أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب · ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها · ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (النور : 40) ·

« يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » (النور : 43) ·

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » (النور : 39) ···

* * *

فأين من هذه الآيات المحكمات ، تجرثم الفكرة وقاطرة التاريخ والخثرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الاستاذ سلامة موسى قدم حلا لازمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو الى « الخط اللاتينى » الذى انتهت اليه آماله فى رقى الامة وتطورها وأصلاح المجتمع ، وحامت حوله احلامه فى عالم سعيد أو « يوتوبيا الضائعة » ·

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الاستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العدول عن الحروف العربية الى الحروف اللاتينية قصدا الى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغنى عن ضبطها بالشكل · فتلقف الكاتب المصلح « الاستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بأن اصلاحها مستطاع · والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم · ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة الى الاصلاح الجرىء الا فى رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم امين ، او احمد امين فى الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمى حيث يدعو الى الخط اللاتينى والواقع ان اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (؟ !) التى اغلق عليها هذا الخط ابواب **ماضيها** وفتح لها ابواب مستقبلها ·

« وهذا الاقتراح يحتاج اولا الى الغاء الاعراب· وميزاته :

« اولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند **المتمدنين** الذين يملكون الصناعة ، اى العلم والقوة والمستقبل · وهذا الخط تأخذ به الامم التى ترغب فى التجدد كما فعلت تركيا · ومن المرجح ان يعم هذا الخط العالم كله تقريبا ·

« وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتينى يزول هذا الانفصال النفسى الذى احدثته هاتان الكلمتان **المشؤومتان** : شرق وغرب ، فلا نتغير من ان نعيش العيشة العصرية · ولا بد ان يجر هذا الخط فى اثره كثيرا من ضروب الاصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ ·

« وثالثا : ورابعا وخامسا ...

« وسادسا : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتينى نجد أن تعلم اللغات الاوربية قد سهل ايضا ، فتنفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة ·

« وبالجملة نستطيع أن نقول ان الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ » (1)

* * *

فهل الامر حقيقة بمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا — القدوة والمثال — ان تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما بلغته اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا — والانكليزية لغتها الرسمية والثقافية ، ان تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر او المغرب مثلا ؟

أو هل خرج السودان الجنوبى — ولغته الانجليزية — من الشعوب المتخلفة الى الدول المتمدنة ، وتحرر من الكلمتين المشؤومتين : شرق وغرب ، فاستطاع ان يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت امامه آفاق موصدة فى وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلى عنها ، رجال تعوزهم الجراة والنباهة كيلا يبالوا الجهلة والحمقى ؟

لكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تصمد لنظر أو منطق او واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غربا « لان هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر اذ هى لا تخدم الامة ولا ترقيها، لانها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكيفه » — كما اكد سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية واللغة العربية »·

بل اخشى ان اقول انها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر ··

ومن هنا كان الخطر ··

فالامة حين تحسن هجوما على عناصر ذاتها ومقومات اصالتها ووجودها من اجنبى غريب عنها مهما يكن زيه او قناعه ، تتحفز لاتقاء الخطر فى مواجهة عدو سافر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه الى حد الرفض والتحدى ·

(1) سلامة موسى : « البلاغة العصرية » ص 109

اما حين تنتقل السهام الى أيدى نفر من ابنائها فان الخطر يأتى من حيث لا تتوقع ، ودون أن تتأهب لاتقائه بشىء من التوجس والحذر والارتياب ·

وما يكتبه الاجانب عن عقم العربية ، قلما يصل الى مجال التأثير العام بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الاجنبى ، وانما يصل اليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكريا الى الغرب ، وهم عادة ينفقون الى المجال الثقافى بدعوات اصلاحية تقدمية ، ثم لا يلبثون أن يكتشفوا فى شخصيتهم لامراض المجتمع، ان لغتنا العربية هى علة العلل واصل الداء ، والقيد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الاصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر ·

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أن يحدث الضجيج اثره فى المناخ الفكرى للامة ، بحيث تحتاج الى جهد شاق يستغرق أمرا لكى تسترد اتزان خطاها وصفاء افقهـا ·

وفى قضية « العربية والعلوم الحديثة » كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها ، من جانب « سبيتا ، وويلكوكس ، وويلمور » ، وغيرهم من الاجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لو لم تجذب اليها عددا من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا فى التقدمية والتطور والاشتراكية · وعن طريقهم اخذت مجراها فى حياتنا القومية ·

وكان ربط تخلفنا العلمى والثقافى والاجتماعى والحضارى ببداوة العربية وجمودها ، هو الذى مكن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدق عن جهل او غفلة ، وتحير المثقفون العرب الاصلاء من امر لغتهم التى عرفوا تاريخها العلمى ·

وكان راى الكثرة من علمائنا ، ان العلوم الحديثة تقدمت اشواطا بعيدة المدى عن العهد بها أيام آبائنا الاقربين ، فضلا عن جيل اليقظة فى القرن الماضى الذى عرب علوم زمنه ·

وعلى مدى نصف قرن او اكثر ، شهدت حياتنا اللغوية ما أشرنا اليه من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ، الى جانب ما قامت به الهيئات العلمية من جهود فى هذا الميدان ·

وتمضى عشرات السنين ··

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت فى تقاريرها او مجلاتها ، ما يستقر عليه الراى من مصطلحات علمية · وما يزال مركز تنسيق التعريب فى الرباط يوالى ارسال رسائله الى علماء الوطن العربى يستفتيهم فى مشكلات تعريب العلوم ·

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق، يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، وقد يكفى ان اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

ـ مختارات من رسائل جابر بن حيان ، (ت 198 هـ) تحقيق بول كراوس ـ ط الخانجى بالقاهرة 1935 ·

ـ « المختصر فى حساب الجبر والمقابلة » ، للخوارزمى (ت 236 هـ) ـ د · على مشرقة ، و د · محمد مرسى احمد ـ القاهرة 1937 ·

ـ « صورة الارض » ، للخوارزمى ، (1) ظهرت منه طبعة كاملة بمعرفة متزك ، وبحوث عنه بقلم تالليو (1895) ومتزك وهو نجمان (1929) · ويقول كراتشوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعا لنللينو ، وبارتولد ، بأنه لا يوجد شعب اوربى واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن

---

(1) الكتاب ذكره ابو الفدا باسم « رسم الربع المجهول » ودرسه المؤرخ البولندى ليلويل (Lelewuel) وخرج بدعوى أعلنها ، هى ان الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف اغريقى عاش فى بلاد الاسلام ، من المصادر الاسلامية لكن دعواه انهارت من اساسها بعثور « سبيتا » على اصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة 1878 وتدلفت اليه العلماء بمقالين نشرهما فى عامى 1879 و 1883 ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة 1883 الى ستراسبورج · انظر كراتشوفسكى فى « تاريخ الادب الجغرافى العربى » ص 68 من الطبعة الاولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ·

أن يقارن بهذا الكتاب الذى الفه الخوارزمى، اكبر رياضيى عصره ، وواحد من اكبر رياضيى جميع العصور على الاطلاق ، اذا أخذنا فى حسابنا اختلاق الظروف » ·

— « الذخيرة فى علم الطب » لثابت بن قرة (ت 288 هـ) — تحقيق الدكتور جورجى صبحى — ط الجامعة المصرية 1928 ·

— « الحسن بن الهيثم » بحوثه وكشوفه البصرية (ت 422 هـ) — الاستاذ مصطفى نظيف — الجامعة المصرية 1942 ·

— « استخراج الاوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها » للبيرونى (ت 440 هـ) — احمد سعيد الدمرداش · الدار المصرية للنشر بالقاهرة ·

— « الآثار الباقية » لابى الريحان البيرونى — معهد الاستشراق ، طشقند ·

— « كتاب الجماهير فى معرفة الجواهر » للبيرونى — كرنكو ؛ حيدراباد 1937 ·

— « القانون المسعودى » فى الهيئة والنجوم ، للبيرونى · د · بول كراوس ·

— « القانون فى الطب » ، للرئيس ابن سينا (ت 428 هـ) ؛ 13 جزءا ؛ ط بولاق 1877، طشقند 1956 ·

— « الشفاء » فى المنطق والطبيعيات والالهيات لابن سينا — المجمع اللغوى بالقاهرة ، 1951 ، 1965 ·

— « شكل القطاع » لنصير الدين الطوسى ، (ت 673 هـ) — الاستانة ، سنة 1309 هـ

— « المعتمد فى الادوية » لابن البيطار (ت 646 هـ) — الاستاذ مصطفى السقاء — ط الحلبى 1951 ·

— « الفوائد فى اصول علم البحار » لاحمد بن ماجد — ق 9 هـ ؛ ط باريس 1924 ·

— « ثلاثة راهمانجات — أراجيز ، فى علم البحار » لاحمد بن ماجد — شوموفسكو ، موسكو 1957 ·

— بحوث تيدمان فى كتاب « نهاية الادراك فى دراية الافلاك » لقطب الدين مسعود الشيرازى (ت 634 هـ) ، تلميذ العالم الفلكى نصير الدين الطوسى · وفى الكتاب مباحث فى الكوزمولوجيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات ·

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكى والجغرافى والملاحى ، فى فهارس كراتشكوفسكى لكتابه « تاريخ الادب الجغرافى العربى » ، وفى كتاب نللينو : « الفلك عند العرب » ·

الى جانب ما نشر علماؤنا من بحوث فى المجلات العلمية ؛ بمصطلحات عربية أو معربة فى العلوم · تجدون بيانا لها فى محاضرات الامير مصطفى الشهابى : « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية »·

* * *

ولا اثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل الى حياتنا العلمية ، ودعونا من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات المعجميين ، ما اتخذت منه موضوع فكاهة ومادة تندر ··

والمفروض أن جهود العلماء فى نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واستكمال الحركة العلمية فى التأليف والترجمة لمطلع العصر الحديث فى النصف الاول من القرن الماضى ··· كانت موجهة الى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها فى تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل كل جديد مستحدث الى المكتبة العلمية العربية ·

لكن الذى حدث هو أن الكليات العلمية فى جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات ··· باللغة الانجيزية او الفرنسية ، وكأن الجامعات فى واد وجهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها فى واد آخر ·

باستثناء كلية الطب فى الجامعة السورية ، التى تأسست فى دمشق سنة 1919 ــ فى عهد الملك فيصل الاول ، باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية · وكان مجلس اساتذتها اشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيها المصطلحات التى جاءت فى تراثنا من كتب الطب ، وفى الكتب المصرية التى الفها علماؤنا ، فى عهد محمد على ، والكتب التى الفها اساتذة الطب فى جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية الى اللغة الانجليزية ·

واستطاع اساتذة دمشق أن يؤلفوا كتبا قيمة فى فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء والمواليد ·

فالف الدكتور مرشد خاطر سفرا فى علم الجراحة من ستة مجلدات ، واوجزها فى مجلدين ·

والف الدكتور احمد حمدى الخياط كتابا فى علم الجراثيم ، والاستاذ محمد جميل الخانى فى علم الطبيعة ، والدكتور حسنى سبح فى الامراض الباطنية (7 مجلدات) ، والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبى فى الكيمياء ··· (1)

ولكن هذه التجربة الناجحة فى العربية لم تتكرر ··

بل لم تستطع ، بعد أن طال بها الزمن اربعين عاما ، ان تقنع جامعات مصر وبيروت والخرطوم بتعريب كلياتها العلمية ·

وكانت المفارقة العجيبة ان جامعة الازهر ، اعرق جامعة اسلامية ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الانجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية (2) ·

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت الى باب مسدود ···

* * *

ثم كان الفصل الاخير من هذه القصة المعتدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى فى (دارمير) للطباعة سنة 1968 !

ولم نسمع ان لجانا عقدت لبحث مشكلات هذا التعريب ، او ان جدلا اثير حول صلاحية اللغة العربية لاستيعاب علوم العصر !

وانما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذى الفه :

* ف · تسيجيلسكى : اللحام الكهربائى ·

* س · نومين : المرجع للاحظى عمال الخراطة والعمال الفنيين ·

* ماليشيف ، ونيكولاييف ، وشوفالوف : اسس الميكانيكا العملية ·

* افروتين : اسس تشغيل المعادن ·

* جلاجونا : الدوال ومنحنياتها ·

ما اقسى الدلالة التى تعطيها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موسكو ، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن من الزمان !

وما ابلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعقدت ازمتنا به ·

لقد بدأت القضية بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة الى هجر لغتنا واستعارة الانجليزية او الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين دون الالمانية او الروسية او اليابانية مثلا ، هما المفتاح السحرى لكنوز العلم ·

وانتهت بكتب (دارمير) للطباعة فى موسكو ، فى عصر غزو القمر ·

فأين نحن من البداية والنهاية ؟

---

(1) لكلية طب دمشق جهود اخرى فى الميدان :اشار اليها الامير مصطفى الشهابى : المصطلحات ص 58 ·

(2) تعربت الدراسة فى الكلية الطبية ببغداد ايضا،فى الاعوام الاخيرة ·

وحين أقول : انتهت القصة ، فانى أعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى ، من حيث هى قضية لغوية ظلت مطروحة أكثر من نصف قرن ، تواجه الامة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن اداء العلوم الحديثة وتصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية ...

ويبقى أن يلتمس الباحثون اسبابا أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها ، من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح اننا فى تبرير موقف جامعاتنا بهذا العقم فى العربية، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجه ، كنا كمن يحرث فى البحر ...

واذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التى جاءتها من الاجانب الغرباء ومن ابنائها المتغربين ، تحاربنا باللهجات العامية حينا وبالخط اللاتينى حينا آخر ، وتتهمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر .

أقول اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت * .

---

* محاضرة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء : استاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس » .